الماء فى القرآن الكريم

د . يحيى عبد الرؤوف جبر

الحمد لله الذى جعل من الماء كل شىء حي ، وينزله على الأرض الخاشعة مطرا فتهتز وتربو ، وما تلبث حتى تنبت من كل زوج بهيج ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، وذلك حين حصاده ، وهكذا يدور الزمان بأحياء ، نباتات كانت أم حيوانات ، فتبارك الله رب العالمين .

وقد وردت كلمة « الماء » فى القرآن الكريم مرات كثيرة ، غير أنها لِمعانٍ مختلفة ، يمكن حصرها فيا يأتى :

١ ـ الماء يُشرب ، أو تُروى به الأرض . قال تعالى : « أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ (١) وقال : « وجعلنا من الماء كلَّ شىءٍ حيّ » (٢) نباتا كان أم حيوانا .

٢ ـ الماء المطر ، وذلك من المجاز ، لأن الماء مادة المطر ، وعلاقته قائمة على اعتبار ما سيكون من حاله إذا نزل واستقر على الأرض ولو سال . ومن ذلك قوله تعالى : « ويُنَزِّلُ عليكم من السماء ماءً (٣) .

٣ ـ الماء لا تعرف صفته أو طبيعته بجزم . وهو الماء الذى كان قبل خلق السموات والأرض ، على نحو ما يتضح فى قوله تعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء (٤) .

٤ ـ الماء يكون عينا أو بئرا أو غديرا أو نحوها ، ومن ذلك قوله تعالى فى أمر موسى عليه السلام : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقُون » (٥) « ونبئهم أن الماء قسمةٌ بينهم ، كل شرِبٍ مُحتضرَ »(٦) .

٥ ـ الماء يُسقاه أهلُ النار ، قال تعالى : « من ورائه جهنم ويُسقى من ماءٍ صديد (٧) .

٦ ـ الماء المَنِىُّ ، الذى يتخلق منه إنسان . قال تعالى فى الانسان بعد أن بدأ خلقه من طين : « ثم جعل نسْلَهُ من سلالة من ماء مهين (٨) وقال : « فلينظر الإنسان مِمَ خُلِق ، خُلِقَ من ماء دافقٍ يَخْرُج من بين الصُلْبِ والترائب (٩) أى من بين لحمه وعظمه .

وكل سائل فى العربية ماء ، ومن ذلك فى الصهير وهو ذوب المعادن قول الراجز فى محور بكرة « عجلة البئر » :

ومحور أخلص من ماء اليلب (١٠) أى صنع من صهير الفولاذ .

وقد عرض القرآن الكريم الكثير من أحوال الماء حيث قد يكون ظاهرا يجرى ، أو راكدا ، وقد يكون فوارا يعجز الناس طلبه . قال تعالى : « قلْ أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوْرا فمن يأتيكم بماء معين (١١) أى فمن يأتيكم بماء عذب ظاهر جارٍ ؟ .

وقد يكون عذبا فراتا : كمياه الينابيع والأمطار والأنهار ، أو ملحا أجاجاً كماء البحر ، وقد ورد ذكرها فى آية واحدة هى قوله تعالى : « وهو الذى مرج البحرين : هذا عذْبٌ فرات ، وهذا مِلْحٌ أُجَاج (١٢) والمقصود بالبحرين هنا الماءان الكثيران الواسعان (١٣) . وليس البحر المصطلح الجغراق الحديث . فان قلت وأين هى البحار العذبة ؟ قلت : هناك تفسيرات ثلاثة يمكن أن يكون المقصود احدها وهى :

١ ـ البحيرات ، والغالب فى مائها أن يكون عذبا كمياه بحيرة الحولة وطبرية من بلاد الشام ،وقد يكون ملحا مثل مياه بحيرة greut sultlakeفى امريكا ، وقد يسمى البحر بحيرة والعكس ، ومن الأول قول اليعقوبى : « وبها البحيرة الميتة التى تخرج الحمرة والموميا » (١٤) يقصد البحر الميت ، وقول أبى رستة فى بحر بُنطس « الأسود » : « وهو بحر ضخم وإن كان يسمى بحيرة (١٥) .

٢ ـ الأنهار العظام ، كالنيل والدجلة والفرات ، وذلك لكثرة ما تجرى به من ماء ، وقد يسمى النهر بحرا ، وعلى ذلك المصريون فى نهر النيل الى يومنا الحاضر ، وقد أطلق الله تعالى عليه اسم « اليم » ، وقال ابن الفقيه فى مختصر كتاب البلدان : « والنيل سماه الله بحرا » ، وقال الله : « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » ـ واليم هنا النيل (١٦) .

٣ ـ مصابّ الأنهار فى البحار حيث يداخل ماء النهر ماء البحر فى رقعة كبيرة تمتد قدما فى البحر ، الأمر الذى يشكل بحيرة عذبة فى جوف البحر المالح ، وقد تحدث هذه الظاهرة فى المحيطات نتيجة لينابيع أو أنهار داخلية .

وقد ذكر القرآن عددا من مصادر المياه فى كثير من الآيات ، وفى مقدمة ذلك : المطر . وقد سماه الله « رحمة » حيث قال : « فانظر إلى آثار رحمة الله (١٧) كيف يحيى الأرض بعد موتها » ، وقال : « ويرسل الرياح بُشْرًى بينْ يَدَىْ رحمته »(١٨) . ونعمت الرحمة المطر ، ولا يزال التهاميون يُسمون المطر رحمة الى يومنا الحاضر . يقولون مهنئين بالمطر : تَبَارَكَنْ أَمّرْ حْمَةُ ، أى تباركت الرحمة ، والقوم على طمطمتهم باقون .وأسماه غيثا ، لأنه يُغاث به الحيوان والنبات والعباد ، أما رأيت فرحة البادين بالمطر ، وكيف أن الأرض تتزين به وتتزخرف ؟ قال تعالى : « وهو الذى يُنَزِّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد (١٩) » .

وأسماه ودْقاً ، وهو الصبيب المنهمر ، وذلك فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يُؤَلِّف بينه ثم يجله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله(٢٠) » . وأسماه رجعا ، وذلك أن العرب تقول : إن السحاب يحمل الماء من البحر ثم يرجعه إلى الأرض ، أو أنهم أرادوا التفاؤل فسموه رجعا وأوبا ليرجع ويثوب . قال الهذلى :

ربّاء شمّاء لا يأوى لِقُلتها الا السحابُ وإلاّ الأوب والسبُل(٢١)

أى الاّ السحاب والمطر ، والمطر الذى يقال إنه لا يبلغ الأرض ويتبخر قبل أن ينزل ، يعرف جغرافيا بالمطر الكاذب .

وقيل : سمى المطر رجعا : لأن الله يُرجعه وقتا فوقتا . قال تعالى : « والسماء ذات الرَّجْعِ (٢٢) » ، أى ذات المطر بعد المطر . ومنه قول الخنساء :

كالرجع فى المدجنة السارية (٢٣) وقد يفسر فيه بالرعد ، وبالسراب

كما أسمى الله المطر خبئا . وهذا لفظ عام يطلق على كل ما خبأه الله عز وجل من غيوبه ، أو تخبئه أنت لغيرك . ودلالته على المطر تتضح فى قوله تعالى : « ألاّ يسجدوا لله الذى يُخرج الخبء فى السموات والأرض (٢٤) » . ويفسر بما يفسر به الرجع . والخبء هنا بمعنى المخبوء ، وهذا من باب اقامة المصدر مقام مفعوله .

وأسماه رزقا ، لأنه مصدره وسببه ، وهذا ككثير مما سبق : ضرب من المجاز علاقته المسببية ، قال تعالى : « ويُنزّل لكم من السماء رزْقا (٢٥) » .

كما أسماه ماء ، وقد عرضنا لذلك فيما مضى . أما كلمة « المطر » فلم ترد فى القرآن الكريم للدلالة على الماء النازل من السماء ينتفع به ، وإنما كل ورودها مقرونة بالعذاب أو بإنزال غير الماء ، ويتضح ذلك فى قوله تعالى : « وأمْطرنا عليهم حجارة من سجّيل منضود (٢٦) » .

وقوله : « القرية التى أمطرت مطر السوء (٢٧) وهى سدوم مدينة قوم لوط ، وتجثم الآن تحت مياه البحر الميت ، وكانت أمطرت بالحجارة وخسفت (٢٨) .

أما أنواع المطر التى وردت فى القرآن الكريم فأربعة هى :

١ ـ الصَّيب : وهو المطر الذى يصُوب ، أى ينزل ويقع ، ويقال للسحاب صَيِّبٌ أيضا ، قال الشّماخ بن ضرار :

وأسْحم دانٍ صادق الرّعد صَيِّب (٢٩) .

أى رب سحاب أسود قريب من الأرض مطير . وقد ورد ذكر الصِّيب فى قوله تعالى : « أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعدٌ وبرق » (٣٠) وتدلنا القرائن على أن الصيب مطر شديد غزير . وعن الزمخشرى قال : « وقرئ كصائب ، والصِّيب أبلغ (٣١) ولا يشترط فى الصِّيب أن يكون للعذاب ، فقد يرجى نفعه ، ومصداق ذلك قوله ﷺ : اللهم صيِّبا نافعا (٣٢) والصِّيب من صاب يصوب فهو صيِّب ، يناظر ساد يسود فهو سيد .

٢ ـ الوابل : وهو المطر القوى الذى يستمر وترتوى به الأرض .

٣ ـ الطَّلّ : وهو المطر الضعيف ، وقد يسمى الندى طلا ، وقد ورد ذكر هذين النوعين معا فى آية واحدة هى قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أمْوالَهُمْ ابتغاء مرضاة الله وتثْبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يُصِبْها وابلٌ فطلّ والله بما تعملون بصير (٣٣) » فهى لطيب تربتها تجود بالثمر وإن لم يصبها غير مطر ضعيف .

٤ ـ البَرد : وهو المطر ينزل على هيئة حبيبات متجمدة ، وقد تكون حبات كبيرة . ومن ذلك قوله تعالى : « ويُنزِّل من السماء من جبل فيها من بَرَدٍ فيصيب به من يشاء ويصرفُه عمّن يشاء (٣٤) .

٥ ـ ومن مصادر المياه التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم غير المطر ، العيون الجارية ، وذلك فى قوله تعالى : « وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا (٣٥) وقوله : « فيهما عينان تجريان » (٣٦) .

٦ ـ الينابيع : وهى كالعيون تنفجر من الأرض أو الصخر ، غير أن الينبوع أكثر تدفقا من ماء العين وأشد ، ويعكس ذلك صفة الانفجار التى يتميز بها صوت « الماء » ومن ذلك قوله تعالى : « وقالوا لنْ نؤمن لك حتّى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا (٣٧) . كما ورد الجمع فى قوله : « فسلكه ينابيع فى الأرض (٣٨) . أى أدخله فيها ثم أجراه ، يعنى ماء المطر .

٧ ـ الأنهار : وأكثر ما وردت مجموعة مصاحبة للجنة ، تجرى فيها ، فى تركيب يكاد يكون واحدا هو قوله تعالى : « جنّات تجْرى من تحتها الأنهار » (٣٩) . والأصل فى النهر أن يكون من ماء جوفى ، ويتضح ذلك فى قوله تعالى : « وإنّ من الحجارة لما يتفجّرُ منه الأنهار (٤٠) . وفى

قوله : « وفجّرنا خلالهما نَهَرا » (٤١) . والنّهرُ ، بفتح الهاء وتسكينها جائز ، هو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر : يقال لبردى نهر دمشق ، وللنيل نهر مصر ، ومدار التركيب على السعة .

٨ ـ البحار : وقد وردت فى الصيغ الثلاث ، الأفراد والتثنية والجمع ، فمن المفرد قوله تعالى : « فاتخذ سبيله فى البحر سربا »(٤٢) . ومن المثنى قوله : « لا أرجع حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حُقُبا(٤٣) . ومن الجمع قوله : « وإذا البحارُ سُجّرت(٤٤) . وقولـه « وإذا البحار فجّرت(٤٥) ، ومنه جمعا للقلة قوله : « والبحر يمده من بعده سبعة أبحر(٤٧) .

وقد ورد فى القرآن الكريم لفظ آخر مرادف للبحر هو اليم . وقد عرفه الزمخشرى (٤٧) بقوله : « هو البحر الذى لا يدرك قعره ، وقال : وقيل : هو لجة البحر ومعظم مائه،واشتقاقه من التيمم لأن المستنفعين به يقصدونه ، قلت : ربما كان من الأمْ بتسهيل الهمزة وهو الضّد والتولى نحو الشىء ، قال نافع بن لقيط :

فما أمّى وأمّ الوحش لما　　تضرّع فى مفارقىَ المشيب

أى : فما قصدى بها . وقد فسر اليمَّ بأنه نهر النيل بخاصة . ولهذا ما يؤيدهُ ، ومنهُ قول الزمخشرى نفسه (٤٨) : ان نهرا كبيرا كان يشرع من اليم الى بستان فرعون . وهذا النهر لا يمكن أن يكون من البحر : لأن ماء البحر لا تسقى به البساتين . وورد عنه ، أيضا قوله : اليمّ : البحر ، وقيل : هو نيل مصر (٤٩) ، وان اشتقاق « اليم » من احدى المادتين (ى م م أو أ م م) اللتين تنصرفان لدلالتين تقعان على معنى التولى والقصد أمر مقبول ؛ ذلك أن العرب ربما سمّت المكان بما يحدث فيه أو يقصد إليه ، كتسميتهم بطن الوادى جازعا : لأنه إنما يجتاز « يجُزع » منه ، وتسميتهم الطريق الى الماء واردا ، لأنهم يردون الماء فيه ، أو صادرا لأنهم يصدرون عنه .

وجدير بالذكر أن كلمة اليم قد وردت فى القرآن الكريم سبع مرات فى آيات تدور حول خبر موسى عليه السلام مع آل فرعون وبنى اسرائيل . قال تعالى : « فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم (٥٠) ولعل المقصود فيضان النيل أو مد البحر .

وكلمة أخيرة ؛ إن اليم هو البحر فى العربية وقد ورد فى أدب الجاهلية ، وهو البحر فى العبرية والسريانية والآشورية ، ولا وجه لأن يقال إنه فى العربية دخيل من العبرية أو السريانية .

٩ ـ الآبار جميع بئر مؤنّثة . وقد ذكرها القرآن مرة واحدة مفردة فى سورة الحج (٥١) قال الله تعالى « وبئرٍ معطّلة وقصرٍ مَشيد » .

كما ذكر « الجُبّ » وهو البئر ، قيل : لأن الأرض تُجبّ أي تحفر له ، ولعله البئر لم تُطْو قال تعالى فى خبر يوسف : « وألقوه فى غيابت الجُبّ » (٥٢) وغيابته غوره وما غاب منه عن عين الناظر .

ومن مصادر المياه وتجمعاتها وأحوالها التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم .

أ ـ السيول : وهى ماء المطر جاريا فى شعب أو واد ، قال تعالى : أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابيا ، (٥٣) وقال فى سبأ : « فأرسلنا عليهم سيل العرِم » إشارة إلى انهيار سد مأرب ، والسيل فى الآية الأولى من النعم وفى الثانية من النقم .

ب ـ السرِىّ : وهو النهر والجدول ، وقد ورد ذكره مرة واحدة فى القرآن الكريم . قال تعالى : « قد جعل ربك تحتك سريا » (٥٤) وقد سئل النبى ﷺ عنه فقال : هو الجدول (٥٥) وقيل من السرو ، أى السخاء فى المروءة (٥٦) ومنه قول لبيد فى معلقته :

فتوسطا عُرض السرى فصدعا   مسجورة متجاورا قلامها(٥٧)

جـ ـ الطوفان ، وهو أن يعم الماء الأرض ويطوف بها . وقد ورد ذكره اكثر من مرة ، قال تعالى : « فأرسلنا عليهم الطُوفان والجراد والقُمّل والضَفادع والدَم آيات مُفصّلات » (٥٨) وهو هنا فيضان النيل ، وطوفان الظلام جنونه وإلباسه الأرض .

د ـ واللُجة : وهى وسط الماء ومعظمه . قال تعالى فى بلقيس : « قيل لها ادخلى الصرّح فلماّ رأته حسبته لُجّةً وكشفت عن ساقيها » (٥٩) كيلا يبتل ثوبها ؛ لأن ساحة الصرح كانت مصقولة فحسبتها ماء .

هـ ـ الرّسُ : وهو البئر . قال تعالى « وعاداً وثمود وأصحاب الرّسّ » (٦٠) وهكذا مضافا اليه ، ورد فى غير هذا الموضع ، والرّسُ قرية فى منطقة القصيم بنجدٍ ، قديمة حديثة ، وقال أبو عبيدة : الرّسُ هى البئر غير المطوية (٦١) .

ويلاحظ القارئ اهتمام القرآن الكريم بالماء وأحواله ومصادره ومجاريه وليس غريبا ، ذلك أنه مصدر الحياة وأداتها ، ولعل فى هذا ما يبرر الخصومات الشديدة التى كانت تحتدم بين القبائل العربية قديما بسبب الماء .

* * *

• الهوامش •

(١) الواقعة ، الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) الأنبياء من الآية ٣٠ .
(٣) الأنفال من الآية ١١ .
(٤) هود الآية ٧ .
(٥) القصص الآية ٢٣ .
(٦) القمر الآية ٢٨ .

(٧) ابراهيم الآية ١٦ .

(٨) السجدة الآية ٨ .

(٩) الطارق الآية ٥ ، ٧ .

(١٠) الالفاظ الجغرافية ٥٦٠ .

(١١) الملك الآية ٣٠ .

(١٢) الفرقان الآية ٥٣ .

(١٣) الكشاف « للزمخشرى » ٢٨٦/٣

(١٤) يقصد البحر الميت والنص من كتاب البلدان ص ٣٢٩ .

(١٥) ابن رستة « الاعلام » ص ٨٦ ـ

(١٦) الروم من الآية ٥٠ .

(١٧) النمل من الآية ٦٣ وانظر الآية ٤٦ ايضا والفرقان ٤٨ .

(١٨) الشورى الآية ٢٨ .

(١٩) النور من الآية ٤١ وانظر لنفس الغرض الروم الآية ٤٨ .

(٢٠) السكرى « القاهرة » ١٢٨٥ .

(٢١) الطارق الآية ١١ .

(٢٢) الزمخشرى « الكشاف » ٧٣٦/٤ .

(٢٣) النمل الآية ٢٥ .

(٢٤) المؤمن الآية ١٣ .

(٢٥) هود الآية ٨٣ وانظر الأنفال الآية ٣٢ أيضا .

(٢٦) الفرقان ٤٠ .

(٢٧) الزمخشرى « الكشاف » ٢٨١/٢ .

(٢٨) الشماخ ٢٥ .

(٢٩) البقرة من الآية ١٩ .

(٣٠) الكشاف ٨٢/١ .

(٣١) ابن حجر ـ فتح البارى ٤٣٠/٢ .

(٣٢) البقرة الآية ٢٦٥ .

(٣٣) النور الآية ٤٣

(٣٤) البقرة من الآية ٦٠ والاعراف من الآية ١٦٠ .

(٣٥) الرحمن الآية ٥٠ .

(٣٦) الاسراء الآية ٩٠ .

(٣٧) الزمر من الآية ٢١ .

(٣٨) انظر أمثلة لذلك البقرة الآية ٢٥ وآل عمران ١٥ ، ١٣٦ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، والنساء ١٣ ، ٥٧ ، ١٢٢ . والمائدة ١٢ ، ٨٥ ، ١١٩ .

(٣٩) البقرة من الآية ٧٤ .

(٤٠) الكهف من الآية ٣٣ .

(٤١) الكهف من الآية ٦١ . وانظرها ٦٣ ، ٧٩ ، ١٠٩ والرحمن ٢٤ .

(٤٢) الكهف الآية ٦٠ وانظر فاطر ١٢ والرحمن ١٩ .

(٤٣) التكوير الآية ٦ .
(٤٤) الانفطار الآية ٣ .
(٤٥) لقهان الآية ٢٧ .
(٤٦) الكشاف ١٤٨/٢ .
(٤٧) ابن بنين ٢٠٦ .
(٤٨) الكشاف ٦٢/٣ ، ٦٣ .
(٤٩) نفس المرجع ٣٩٣/٣ وانظر ابن الفقيه ص ٥٨ .
(٥٠) طه الآية ٧٨ ، الآية ٤٥ .
(٥١) يوسف الآية ١٠ ، ١٥ .
(٥٢) الرعد من الآية ٧ .
(٥٣) سبأ الآية ١٦ .
(٥٤) مريم من الآية ٢٢ .
(٥٥) الكشاف ١٢/٣ ، ١٣ .
(٥٦) اللسان « سرو » .
(٥٧) ابن وريد « الجمهرة » ١٣٢/٢ .
(٥٨) الاعراف من الآية ٤٤ .
(٥٩) النمل من الآية ٤٤ .
(٦٠) الفرقان الآية ٣٨ وذكرت « الرس » ق سورة قَ من الآية ١٣ .
(٦١) الزمخشرى « الكشاف » ٢٨٠/٣ .

« الناس أحرار في مشاكلهم ومشاربهم ومرازقهم ونزههم . ومن اعتدى عليه فليراجعني لأنصفه . ولو جاءني أي إنسان وقال : إن ولدك فيصلا أخذ مالي واعتدى علي : فإن رآني أنصفته منه علم أني أقول وأصدق في القول . وإن رآني أهملته وساعدت ولدي على ظلمه فعند ذلك يكون له الحق علي ..

«عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود»